المقدمة

لماذا؟ وما جدوى الكتابة الآن عن أي إنسان، مهما بلغت أهميته وعظم شأنه وعلا قدره، مثل المهاتما غاندي، وذلك بعد مضي سبعة عقود على وفاته، وبعد أن أتخمَتْ المكتبات واكتظت رفوفها بالمئات من الكتب التي دُونت عنه، أثناء حياته وبعد وفاته، إلى جانب ما كتبه وسجله هَو عن نفسه وعن أفكاره من مجلدات؟ وما عسانا أن نضيف إلى ذلك الكنز الزاخر بالعطاء الفكري والفني الذي رَسّخَ مكانة هذا الإنسان في سجل الخلود؟

يمكن للجواب عن هذا السؤال أن يمتد على أكثر من محور، من أهمها، من دون شك، حاجتنا اليوم؛ نحن بالذات، كشعوب أو كأمة عربية، أكثر من أي وقت مضى، وحاجة منطقتنا العربية، أكثر من أي منطقة أخرى، إلى إيقاظ واستنهاض قيم ومبادئ المحبة والتسامح والتعايش والسلام التي نادى بها وطبقها المهاتما غاندي، وحاجتنا الملحة أيضًا إلى الخروج من دوامة الفتن والتناحر والاقتتال وذلك باستنفار الصرخات المدوية التي أطلقها غاندي بقوة في وجه التشدد والعنف والإرهاب.

إن عالمنا العربي يشهد، منذ فترة ليست قصيرة، أفظع وأشنع صور التطرف والعنف والإرهاب، تغذيها وتعززها أطروحات وخطابات تحشيد وتسعير، تنطلق باسم الدين، تحرض على الكراهية والحقد والانشطار المجتمعي، وتدعو إلى الاقتتال وسفك الدماء، وتبرر القتل وتباركه بحماس وقناعة واعتزاز، وتعد القتلة وتغريهم بالجزاء الأوفى.

أطروحات تمجد العنف والإرهاب ترتكز على مفاهيم مغلوطة، وثقافة مشوشة، ومنظومة فكرية مختلة، ومنحى أخلاقي وسلوكي شاذ، وإذا لم يتم التصدي لهذه الأطروحات وحصارها فإنها ستؤدي، لا محالة، إلى ترسيخ هذا الانحراف الفكري الخطير، وستدفع الأمة بأسرها إلى هاوية اليأس والإحباط والتأزم، وستجرفها إلى حافة الاضمحلال وتخرجها بدينها ودنياها من مسار التاريخ والحضارة الإنسانية.

في ظل هذه الأوضاع العصيبة المزرية تبرز، بإلحاح شديد، الحاجة إلى استصراخ رسالات السماء واستنهاض حِكَم العقلاء والحكماء، وعلى رأسهم المهاتما غاندي وتراثه الفكري الصامد الذي يقف على نقيض ذلك ويتمسك بالتزام ثابت راسخ فكريًا وعمليًا بثقافة التسامح والتعايش والسلم الإنساني.

وهذا ما يبرر بل يفرض زيارة المهاتما غاندي والكتابة عنه حتى بعد مضي سبعة عقود على وفاته.

إلى جانب ذلك فإنني وجدت منفذًا إلى مساحة واسعة من فكر المهاتما غاندي لم تتم تغطيتها وتناولها بالقدر الذي تستحقه، والتي انعكست على مواقفه من قضايا الإسلام والأمة العربية، والتي سأحاول استكشافها ورصد منابعها ومتابعة نشأتها وتطورها بشيء قليل من التفصيل.

فعلى الرغم من أن غاندي ولد في أسرة وضمن بيئة هندوسية محافظة، وأصبح هندوسيًا ملتزمًا حتى النخاع، إلا أن توجهاته ومواقفه، كما سنرى لاحقًا، اتسمت بقدر بالغ من الاهتمام والتقدير للدين الإسلامي، وانسجامًا تامًا مع قيمه، وإكبارًا فائضًا لنبي الإسلام ورسالته، وتماهيًا جليًا مع المسلمين وقضاياهم.

وسنذكر لاحقًا في هذا الكتاب، أن غاندي أكد في مواقع ومناسبات مختلفة أنه مسلم بقدر ما هو هندوسي، وأنه في وعيه الديني لا يبتعد كثيراً عن الفكر الإسلامي في تحديد الوجود الإلهي أو الذات والصفات الإلهية وطبيعة الخالق. وسنرى أيضاً أن الكثير من الغُلاة المتطرفين الهندوس، كانوا وما يزالون، يعتقدون بل يؤمنون بأن غاندي كان أقرب إلى الإسلام والمسلمين، بل يجزمون أنه ضحى بمصالح ومكتسبات الهندوس لصالح المسلمين. هذه القناعة جعلت خلية منهم تقوم بتخطيط وتنفيذ عملية اغتياله وتصفيته بعد إعلان استقلال الهند. وما تزال إحدى فصائل هؤلاء الغُلاة المسماة "Hindu

"Mahasabha تحتفل كل عام بذكرى اغتيال غاندي، بالغناء والرقص وقرع الطبول وتقديم الحلوى، وتعتبر قاتله بطلًا قوميًا، وتسعى لبناء معابد بإسمه وإقامة تماثيل له.

في الوقت نفسه، فإننا سنرى غاندي يعلن رفضه وبشدة للنظريات والممارسات الصهيونية، كما سنرى مؤشرات واضحة على تجنبه، منذ البداية، الاقتراب من تخوم الفكر اليهودي، وعدم محاولته الاطلاع على مبادئ وأسس الديانة اليهودية، حتى وهو في زخم مرحلة نهمه وولعه بدراسة مختلف الأديان عندما كان يسعى لتحديد خيارات ومسارات بحثه عن الحقيقة كما سيأتي ذكره بالتفصيل.

إن أي باحث لن يجد صعوبة في اكتشاف قدر كبير من نفور غاندي من تأكيد الفكر اليهودي على تميز اليهود وتفوقهم على سائر البشر والأمم، فقد قال: "كان اليهود القدماء يعتبرون أنفسهم، من دون سائر الناس، شعب الله المختار، فكان من نتيجة ذلك أن أُنزِلَت بأحفادهم عقوبة غريبة ظالمة(1) ."

لقد أعلن غاندي بصراحة، كما سنرى لاحقًا، عدم قبوله أو قناعته بأن الله قد وعد اليهود قبل آلاف السنين أن يعطيهم أرض فلسطين، وإدراكه أن الحركة الصهيونية قد اختطفت العقيدة اليهودية وطوعتها لأغراض سياسية، واستغلت محنة اليهود في أوروبا وتاجرت بأرواح الملايين منهم الذين ذهبوا ضحية محارق هتلر وأقبيته، واستغلوا ظروفهم وألهبوا عواطفهم.

رفض غاندي وعد بلفور، وقاوم، بإصرار، ابتزاز الصهاينة وضغوطهم عليه لانتزاع تصريح منه يؤيد "حق اليهود في إقامة دولة خاصة بهم على أرض فلسطين"، وأعلن بأعلى صوته تأييده لعدالة القضية العربية ومساندته للحق العربي وشجبه للظلم الذي تعرض له الشعب الفلسطيني، وبذلك فقد أرسى قواعد ثابتة لسياسة الهند الخارجية المساندة بحزم لقضايا الأمة العربية.

لقد تصدت القوى الصهيونية لغاندي بمختلف صنوف الابتزاز وحملات التشهير والتجني والتشكيك والإساءة والتشويه، ولم تغفر له مواقفه المبدئية، واستمرت في حملاتها المغرضة، التي لم يسلم منها حتى بعد وفاته وإلى وقتنا الحاضر، لدرجة اتهامه، مؤخراً، بالشذوذ الجنسي وممارسته مع شاب يهودي تعرف عليه في جنوب أفريقيا عندما انتقل إليها وقاد حركة مقاومة النظام العنصري فيها(2) .

ظل الصهاينة، ولا أقول اليهود، يكرهون غاندي لأنهم يكرهون رموز الحرية والعدالة والسلم واللاعنف.

هذه بعض الحقائق التي يجب أن يعرفها القارئ العربي، وهي الحقائق ذاتها التي أسست لتدشين سياسة جمهورية الهند، التي كانت وستبقى دولة صديقة مناصرة لقضايا العرب والمسلمين، على الرغم مما اعترى عنفوان مواقفها تجاه القضية الفلسطينية من وهن وتراخ في الآونة الأخيرة أسوة بالكثير من الدول العربية.

وعودًا، مرة أخرى، إلى السؤال أو التساؤل الذي طرحناه في البداية عن جدوى الكتابة عن المهاتما غاندي في هذا الوقت بالذات، فإن من بين محاور الإجابة أيضًا أن هناك فئة أو نخبة من البشر لا يموتون.. يبقون أحياء.. يظل حضورهم ماثلًا أمامنا دائمًا، يرفضون أن يتواروا أو أن يغيبوا، تبقى مواقفهم ومبادئهم ورؤاهم صامدة تتحدى الزمن، لا تضمر، ولا يخفت بريقها، أناس يَظَلون مصدر أمل وإلهام، تتجدد الحاجة إليهم، ويشتد العطش إلى مناهلهم، وتصرخ الضمائر لتجديد الوفاء لهم.

غاندي في مقدمة ذلك النوع من البشر في عصرنا الحديث، وأصبح بالفعل واحدًا من الخالدين، ومن أبرز القادة والمفكرين، فقد عزّزَ قيم الحرية والعدالة والتسامح، وحارب فكر العنف والتطرف والإرهاب والاستبداد، ونجح في استخدام أدوات المقاومة السلمية واللّاعنف في تحقيق أحلامه وأهداف أمته وتحرير بلاده وانتزاعها من براثن الإمبراطورية البريطانية، التي كانت وقتها من بين أصلب وأعتى القوى في العالم.

كان غاندي أبرز مفكر وأول قائد في التاريخ الحديث قام بفضح وتعرية خطورة الإرهاب والعنف قبل أن تصبح هاتان الكلمتان لقمة سائغة وطبقًا على موائد الوجبات الخطابية لساسة العالم وقادته في أيامنا هذه. غاندي رفض العنف منذ البداية كمبدأ وأسلوب وحتى كأداة لتحقيق أكثر المطالب عدالة وإنصافًا.

ولا يوجد من بين قادة العالم في وقته وحتى اليوم من تعرض شخصيًا، كما تعرض غاندي، للأذى الجسماني والنفسي والضرب المبرح والإهانة، وظل ملتزمًا باللاعنف، ولم يحاول أن يرد الأذى أو يدافع عن نفسه باستخدام القوة أو حتى باستخدام يديه العاريتين، وليس هناك قائد مثله رفض بشدة أن ينزع شعبه لاستخدام العنف في أي صورة من صوره وهو يكافح ضد الظلم والاستعباد ومن أجل الحصول على حقوقه المشروعة.

.....

ليس من السهل الكتابة عن المهاتما غاندي، ومن المفارقات اللافتة في هذا الصدد، أن الصعوبة في الكتابة عنه تكمن في وفرة المصادر وتوفرها وتيسرها، وفي غزارة المعلومات المتاحة وتنوعها وليس في ندرتها وقلتها وشحتها، كما هو متوقع أو معتاد في مثل هذه الحالات. والتحدي يتجسد أساسًا في قدرة الكاتب على الاطلاع عليها ودراستها وتحمل مسؤولية الفرز والحكم والاختيار بكل أمانة ومصداقية وتجرد.

وفي الواقع ربما يكون المهاتما غاندي واحدًا من أكثر عمالقة عصرنا الراهن ممن حظوا بتغطية إعلامية غزيرة في حياتهم وبعد وفاتهم مقارنة بأي شخصية أخرى في عصره، فرفوف المكتبات، كما ذكرنا، زاخرة ومزدحمة بمئات بل آلاف من الكتب والسير التي كتبت عنه بمختلف اللغات، وهناك أطنان من المستندات والدراسات والبحوث والمقالات التي جمعها وكتبها كبار المؤلفين والمفكرين والمؤرخين، كما كتب عنه النقاد والأصدقاء والأقارب والأعداء والمناوئون والزملاء ورفاق الدرب.

مئات المجلدات من المستندات والمذكرات والرسائل متيسرة بما في ذلك "مجموعة أعمال المهاتما غاندي Collected Works Of Mahatma Gandhi"، المكونة من 98 مجلدًا، ومواقع إلكترونية لا حصر لها تم تدشينها فور انبثاق الثورة التكنولوجية للمعلومات بعد عشرات السنين من وفاته، ومعظم أقواله وخطبه ومحاضراته سُجلت ويمكن الرجوع إليها بسهولة، وقد كتب هو نفسه سيرته الذاتية التي أسماها "قصة تجاربي مع الحقيقة"، كما قام بتدوين كل أفكاره وأطروحاته، إلى جانب الكثير من الأفلام الدرامية والوثائقية التي تم إنتاجها وإخراجها عن المهاتما غاند

ولسنوات طويلة ظلت تراودني بإلحاح فكرة كتابة بحث معمَّق أو كتاب للقارئ العربي عن المهاتما غاندي، آملاً أن يساهم ذلك العمل في بلورة قدرة القادة والزعماء والجماعات السياسية والدينية على تبني الأساليب السلمية واللّاعنف في إحداث التغيير في مجتمعاتنا، ومتمنيًا أن يصبح إضافة قيمة إلى المكتبة العربية الفقيرة نسبيًا إلى مثل هذه الأعمال، على الرغم من دور غاندي في إرساء قواعد سياسة الهند الصديقة والمناصرة لقضايا العالم العربي والأمة الإسلامية.

ولسنوات طويلة أيضًا لم أتوقف عن كتابة المقالات والمشاركة في المؤتمرات وحضور الندوات وغيرها من الفعاليات المتعلقة بالهند وبالمهاتما غاندي، ولكن وبسبب ظروف ومشاغل الحياة، فإن تنفيذ تلك الفكرة استغرق سنوات عدة، إلى أن ظهرت إلى النور من خلال هذا العمل المتواضع.

وهناك أكثر من واعز دفعني وشجعني على الشروع في إنجاز هذه المهمة، وكنت أظن أنها ستكون سهلة هينة بالنسبة إليّ بشكل خاص، فإلى جانب المصادر الكثيرة المتوفرة والمتنوعة، فإن هذا الإنسان كان قد شدني إليه عندما تعرفت عليه قبل أكثر من أربعين عامًا، وأصبحت منذ ذلك الوقت أتابعه وابحث وأقرأ عنه وأحرص على مشاهدة الأفلام الوثائقية وحضور الندوات والمؤتمرات والمحاضرات المتعلقة به.

بدأت علاقتي بالمهاتما غاندي بعد وفاته بأكثر من ثلاثين عامًا، ففي نهاية العقد السادس من القرن الماضي، وفي غمرة احتفال الهند بمرور مائة عام على ولادته، وبالتحديد في العام 1969م، ساقتني الأقدار إلى أن أزور الهند وان أبقى فيها لأربع سنوات متواصلة، التحقت خلالها بإحدى الكليات المرموقة التابعة لجامعة بومباي العريقة، التي أصبحت تسمى الآن "جامعة مومباي."

في "كلية القديس زيفير" في بومباي اخترت أن أدرس العلوم السياسية والإدارة العامة، وعلى أساس هذا الاختيار، وبحكم الظرف والزمان والمكان، أصبح المهاتما غاندي ماثلًا أمامي من دون انقطاع طيلة السنوات الأربع التي قضيتها في الهند، وظل يلازمني ولم يفارقني من وقتها.

لقد أدت إقامتي في الهند إلى ارتباطي وتعلقي بهذا البلد العريق، وبعد إنهائي الدراسة، انتظمت زياراتي له بشكل متكرر ولأكثر من مرة في كل عام، ومع الوقت أخذت دائرة علاقاتي ومعارفي وأصدقائي في التمدد والتشعب والتوسع لتشمل كبار السياسيين والمفكرين ورجال الأعمال ووجوهًا من مختلف مناحي الحياة فيها.

ويعتبر كل الهنود، من دون استثناء، المهاتما غاندي أبًا لهم وصانع استقلالهم ومؤسس دولتهم الحديثة، وإن اختلف بعضهم في تقييم سياساته وإنجازاته، أو بلغ حد النقد من بعض الجهات في الهند إلى اتهامه وتحميله وزر ومسؤولية انقسام الهند وانسلاخ باكستان منها.

كان الهنود بمختلف انتماءاتهم ومواقعهم ينادونه "بابو" أي والدنا، وكانوا وما يزالون ينظرون إليه بقدر كبير من الاحترام وبقدر أكبر بكثير من التبجيل والتقديس والتقدير، ولعقود طويلة، لا يكاد حديث سياسي يدور بينهم إلا وكان غاندي محوره أو على أطرافه.

وما يزال الشعب الهندي يحتفل بذكرى يوم ميلاده في الثاني من شهر أكتوبر / تشرين الأول من كل عام بإعلان ذلك اليوم عطلة رسمية، كما تقف الهند برمتها، لدقيقتين، وقفة صمت أو وقفة وقار، في "يوم الشهيد"Shaheed Diwas ، في الساعة الحادية عشرة من يوم الثلاثين من شهر يونيو / حزيران من كل عام تخليدًا لذكرى رحيل زعيمهم المهاتما غاندي، وتمجيدًا لكل شهداء الأمة الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل تحقيق استقلال الهند.

هكذا ظل غاندي حاضرًا في حياة الشعب الهندي ووجدانه، ومتواجدًا في ضمير الإنسانية حتى بعد وفاته المفاجئة المفجعة، صوره وتماثيله في كل مكان في الهند، ابتداء من الأوراق النقدية والطوابع ومكاتب المؤسسات والدوائر الحكومية، وانتهاءً بالجداريات والميادين العامة. وفي خارج الهند، فإن التمثال الرائع لـغاندي الذي يقف شامخًا فوق منصة بارزة في ميدان البرلمان مواجهًا المبنى المهيب للبرلمان البريطاني، وسط مدينة لندن، يجسد جملة من المعاني والدلالات، ويحمل الكثير من الدروس والعبر التي تخلد قيم التسامح والتعايش واللّاعنف والمحبة والسلام في قلب عاصمة الإمبراطورية العصية التي كان غاندي يصارعها، والتي نجح في انتزاع استقلال بلاده وحرية شعبة منها.

لقد قرأت الكثير عن غاندي لكتاب جهابذة ثقاة، وسمعت الكثير عنه من أشخاص كانوا مقربين منه أو يدعون ذلك، وحضرت الكثير من الندوات وظللت أتابع ما ينشر عنه، وأحاول في خضم زخم الحياة وصخبها الاطلاع على ما يتيسر لي منها وما تسمح به ظروف عملي وحياتي والتزاماتي.

وبالمقارنة، وعلى هذا الأساس، فإن ه ذا العمل المتواضع يعتبر بكل المعايير والمقاييس جهدًا فقيراً متأخراً، عزائي الوحيد تجاهه هو عزمي ونيتي على أن يكون هذا العمل بداية أو

باكورة لعمل أكثر عمقًا واتساعًا عن هذا الإنسان الذي أجبر حتى أعداءه ومناوئيه على أن يقفوا له إجلالًا وإكبارًا وتقديراً.

==========

(1)قصة تجاربي مع الحقيقة، سيرة المهاتما غاندي بقلمه، نقلها إلى العربية منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1978، ص 334

(2)الكتاب يحمل عنوان "روح عظيمة: المهاتما غاندي ونضاله مع الهند" للكاتب الأمريكي الصهيوني المعروف جوزيف ليليفيلد

Joseph Lelyveld, Great Soul: Mahatma Gandhi and his Struggle With India, New York, USA, Alfred A Knopf,

2011م